مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 24 عدد: 52 السنة: 2020

الولي في المغرب الأوسط في مواجهة السلطة والحروب والنزاعات"
قراءة في كتاب مناقب صلحاء وادي الشلف"

The wali in the middle maghreb facing the authority wars and conflicts
Reding in the book(manakib solaha wed achlef)

كوثر بن قري[1]
طالبة دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
Koukikouka1993@gmail.com
إبراهيم بن مهية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
benmehaia.07@gmail.com

تاريخ الوصول 2019/02/24 القبول 2020/05/12 النشر على الخط 2020/09/15
Received 24/11/2019 Accepted 12/05/2019.Published online 15/09/2020

ملخص:

يسلط هذا المقال الضوء على نص منقبي وهو " مناقب صلحاء وادي الشلف " وكما هو معروف فإن النصوص المنقبية تعتبر أداة فاعلة في إبراز الأحداث التاريخية ، كما أن النص المنقبي يعمل على تسجيل الحدث التاريخي في إطار عنايته بسيرة الولي أي من خلال تدخل الولي وإقحام فاعليته الاجتماعية في بناء هذا الحدث ، لذا أردت في هذه الدراسة أن أبرز دور الولي في مواجهة السلطة في حالتي السلم والحرب ،ففي الحالة الأولى كانت المواجهة تتم بالوعظ والتأديب وترك التوصيات ، أما في حالة الحروب والنزاعات فقد عملت على رد غزوها أو اقتحامها لمنطقة ما وشكلت الكرامة نقطة الارتكاز الأساسية في هذه المواجهة ،وعلى إثر مشاركة هذه الفئة في العديد من القضايا ذات البعد الاجتماعي خاصة في حالة الحرب بإيواء الرعية في زواياهم والتهدئة من روعهم ورد الجيوش الغازية فقد حظيت هذه الشريحة بالتميز والذكر داخل المجتمع وتبوأت مكانة لا تقل أهمية عن فئة العلماء أو السلطة الحاكمة نفسها .

الكلمات المفتاحية :الولي، المواجهة، السلطة، الحروب، المغرب الأوسط.

Abstract :

This article highlights a hagiographycal text wich is (manakib solaha wed chelef) it known,the agiographycal text are considered as an efficient tool in highlighting the historical events ,furthermore they work on registering the historical event in a framework that takes care of the career of alwali ,through the interference and shoving of his social effectiveness in the building of this event .That is why i wanted in my study, to highlight the role of alwali in his confrontation to authority in cases of peace and war .In the first case,the confrontation was done by homiletic,discipline and leaving recommendations ,concerning the state of war and conflicts,the confrontation worked on invading back or breaking into a given zone ,where dignity made the fundamental point of stand in this confrontation.
Through the participation of this group in a lot of sociological cases especially in the case of war in sheltering citizens in their "zawya",calming them dawn and facing the invading armies,this class gained

[1]–المؤلف المرسل: كوثر بن قري البريد الإلكتروني: benmehaia.07@gmail.com

within the society an important place which is not less than of the class of scientists or the ruling authority itself .
Keywords :alwali ; confrontation ; authority ; wars ; middle maghreb

المقدمة :

يعتبر كتاب مناقب صلحاء وادي الشلف والذي لم يدخل بعد ضمن قائمة الكتب الذائعة الصيت كونه حقق مؤخرا من أهم كتب المناقب المتعلقة بمنطقة المغرب الأوسط ، ومما زاد من قيمته التاريخية أن هذا النص المنقبي لم يعن بتدوين سيرة الأولياء والصلحاء والتعريف بجزئيات حياتهم وتجليات تصوفهم وولايتهم وكراماتهم فحسب بل تضمن معلومات قيمة غطت العديد من القضايا المتعلقة بالجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرنين 7 و 8 للهجرة ،وسأحاول في هذه الدراسة إبراز المكانة التي احتلها الأولياء داخل المجتمع والتي تعود في الأصل إلى فعاليتهم داخله ، لأن مناقب الصوفية تتفاعل أكثر خلال فترة الأزمة ، ويسلط هذا المقال الضوء على الولي في المغرب الأوسط ومواجهته للسلطة والحروب والنزاعات، وذلك باستقراء هذا النص المنقبي حيث تبرز سلطة الولي بواسطة الكرامة لأنّ الأزمة تشكل المجال الخصب للفعل الكرامي.

فكيف أقحم الخطاب المنقبي الفاعلية الاجتماعية للأولياء في الوقوف بوجه السلطة ؟ وكيف كانت فاعليتهم أثناء الحروب والنزاعات؟

ماهي أشكال وقوف الأولياء في وجه السلطة ؟ ، هل كانت الكرامة الأداة الوحيدة التي استعملها الأولياء لردع السلطة ومواجهة الحروب والنزاعات أم تعدّدت أساليب المواجهة؟،سأحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال هذه الدراسة.

1/نبذة عن الكتاب:

الكتاب الذي ستكون دراستي حوله هو كتاب مناقب صلحاء وادي الشلف وهو مختصر كتاب ديباجة الإفتخار في مناقب أولياء الله الأخيار والكتاب في أصله مخطوط توجد نسخة وحيدة منه في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية [(2)]وقد قام بتحقيقه أحد الباحثين لكن الصورة التي خرج بها الكتاب تفتقد لمعايير التحقيق العلمي ممّا جعل الأستاذ عبد القادر بوباية يعيد تحقيقه نظرا للأخطاء التي وردت في التحقيق الأول ليخرج في حلّة جديدة بعدما التزم قواعد التحقيق المعروفة في تحقيق المخطوطات متفاديا الأخطاء والهفوات التي وقع فيها من سبقه في التحقيق.

ويندرج الكتاب ضمن كتب المناقب لكنّ المادّة الموجودة فيه لم تقتصر على ذكر الأولياء و الصلحاء وكراماتهم فحسب ، كما أنّها لا تقتصر على صلحاء منطقة الشلف كما يبدو من العنوان فحسب، فقد رصد لنا هذا الكتاب مادة تاريخية لا بأس بها حول الحركة الصوفية في المغرب بصفة خاصة والمشرق بصفة عامة بالإضافة إلى بعض الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية

[(2)] أبو عمران موسى بن عيسى المازوني ، مناقب صلحاء وادي الشلف، تح : عبد القادر بوباية ، مكتبة الرشاد ، الجزائر ،ط1 ، 2017م،ص4.

والثقافية التي شهدها المغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن هجريين(14/13م) فلولا هذا المصدر لغابت عن الباحثين العديد من القضايا التاريخية المتعلقة بالمغرب الأوسط منها مثلا : علاقة الأولياء بالسلطة الزيانية وأمراء بني توجين وحركات التمرد وغيرها من المعلومات المهمة التي احتوى عليها الكتاب.

2/التعريف بالمؤلف وعصره:

نسب المحقق المخطوط إلى موسى بن عيسى المازوني معتمدا في ذلك على خاتمة المخطوط وذلك من خلال عبارة "كمل جميع الديوان المبارك تأليف الشيخ الإمام العالم القدوة الصدر الأوحد سيدي موسى بن عيسى المازوني رحمه الله...[3]." وقد عرّفه صاحب نيل الابتهاج بقوله :« موسى بن يحي بن عيسى المازوني المغيلي ، قاضي مازونة ،وصفه بعضهم بالفقيه الأجل المدرس المحقق القاضي الأكمل...[4]» ، أمّا الحفناوي فكنّاه بأبي عمران موسى بن عيسى المازوني ووصفه بالعالم الجليل والعامل الأصيل كما أكّدد على تمكّنه في مجال السّنة وعلوم الدّين[5] ،وبالنسبة لمولد المؤلف فهو غير معروف لكنّ المحقق باعتماده على أحد الباحثين حدّد مولده بسنة 770هـ/ 1368م، أمّا وفاته فكانت سنة 833هـ/1430م حسب الباحثة بوية مجاني وهو التاريخ الذي اعتمده محقق الكتاب[6]، فموسى بن عيسى المازوني عاصر نهاية القرن الثامن أي فترة الحكم الزياني وقد عرفت هذه الفترة رواجا فكريا وثقافيا في العديد من مدن المغرب الأوسط ومن هذه المدن تلمسان ، قسنطينة ، بجاية ، مازونة، وهران...وممّا يدل على هذا الرواج وجود المؤسسات الدينية والتعليمية كالمساجد والزوايا والمدارس ،فانتعشت العلوم بفضل هذه المؤسسات وكثرت حلقات الذكر والتدريس وازدادت حركة التأليف، ويرجع هذا الرّواج الفكري إلى تشجيع الأمراء والسلاطين للعلماء ودعمهم لهم ومساهمتهم في إنشاء المدارس والمساجد والزوايا[7]، بل كانوا هم أنفسهم يهتمون بالعلم ويمجّدونه حتّى أنه كان فيهم من يأخذه شغفه وحبه للعلم إلى التأليف[8].

---

[3] المازوني ، ،ص9.

[4] أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة ،دار الكتاب ، طرابلس ، ط2 ، 2000م، ص605-606.

[5] أبو القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي ، مطبعة بيير فونتنا الشرقية في الجزائر ، 1324هـ/ 1906م، ص572.

[6] المازوني ، المصدر السابق ، ص 14 ،25.

[7] من هؤلاء السلاطين السلطان أبو حمو موسى الأول الذي بنى مدرسة ابني الإمام وهما أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام تكريما لهما وقد كان يكثر من مجالستهما والاقتداء بهما، كما بنى السلطان أبو تاشفين الاول المدرسة التاشفينية بجانب الجانع الأعظم وكان أيضا محبا للعلماء فقد أكرم الفقيه أبو موسى عمران المشدالي عندما قدم تلمسان وولاّه التدريس.أنظر: محمد بن عبد الله التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان ، تح : محمود آغا بوعياد ، موفم للنشر ، الجزائر ، 2011م ، ص 139، 141 ، 142.وبالنسبة للمساجد فقد أسس السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696هـ/1296م مسجد أبي الحسن بالقرب من المسجد الأعظم ، وفي ما يخص الزوايا فقد أنشأ السلطان أبو حمو موسى الثاني زاوية أبي يعقوب على ضريحه ، أنظر : عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، موفم للنشر ، الجزائر دط ، 2002م ، ج1 ، ص146، 149.

[8] من السلاطين الذين كان لهم جانب في التاليف السلطان أبي حم موسى الثاني حيث ألّف كتابا سماه "نظم السلوك في سياسة الملوك "وهو عبارة عن إرشادات في سياسة الحكم وأخلاقه.أنظر:التنسي ، المصدر السابق ، ص161.

وعرفت هذه الفترة انتشار التصوف في مدن المغرب الأوسط وبواديه ، حيث وجدت هذه الفئة اهتماما من طرف السلاطين وتميزت العلاقة بينهما بالتوتر تارة والتفاهم تارة أخرى ،كما أنّ عامة الناس وجدت ضالّتها في هذه النخبة في ظل غياب الدولة لما كانت تمتع به هذه الفئة من كرامات، فكان الناس يقصدونهم للدّعاء والاسترزاق والشفاء وغيرها من المتطلبات التي عجزت السلطة عن تلبيتها لهم ،فقد رصدت لنا كتب المناقب الكثير من كرامات هؤلاء على غرار كتاب البستان لابن مريم والمناقب المرزوقية وعنوان الدراية وكتاب مناقب صلحاء وادي الشلف .

تعتبر الفاعلية الاجتماعية للولي المكون الأساسي في بناء داخل الخطاب المنقبي في بناء الحدث التاريخي ،حيث ارتبطت مكانة الولي في المجتمع بمدى نجاعة ولايته[9] أي قدرته على تحقيق ما يرنو إليه المجتمع من حماية وشفاء وقضاء حاجات ....فالمازوني في نصه المنقبي يصور لنا في العديد من المواضع نماذج كثيرة ، عن أشكال تدخل الأولياء في مواجهة السلطة وأثناء الحروب والنزاعات (كهجوم بنو توجين على زاوية الولي أبو البيان واضح)، وفاعليتهم في التخفيف من حدّتها برد المظالم واسترجاع الأشياء المسلوبة أو التوسط من أجل إفشال حملة وغيرها من التدخلات التي سيأتي ذكرها لاحقا.

3/ أشكال تدخل الولي في مواجهة السلطة

أ/ دور الولي في تأديب السلاطين

أورد المازوني نصا يتحدّث فيه عن زيارة السلطان يغمراسن[10] للشيخ الولي أبي البيان واضح[11] في جبل آفرشان فكوشف الولي قبل وصول السلطان فتعمّد عدم الخروج إليه وتركه ينتظر أمام بابه وكان يوما حارّا ،ومكث طويلا مع خاصته حتى يئسوا من خروجه إليهم ، فلمّا خرج قال :«يا يغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حرّاس الأبواب بطول احتجابك عنهم وإنّما فعلت ذلك بك لتستيقظ من سنة غفلتك وتتذكر أحوال القاصدين إليك[12]».

من هذا النص تبرز سلطة الولي ومكانته عند السلطان حيث انتظر إلى غاية خروجه كما يبرز دوره في التأديب لأنه يعلم أنّ السلطان يتماطل في قضاء حاجات الرعية فجعله يجرّب نفس الشعور الذي تحسّ به الرعية أمام باب السلطان كي لا تسمح له

---

[9] أمال لدرع، الخطاب المنقبي وصياغة الحدث التاريخي"غياب الأمن"غزو تلمسان وحصاراتها خلال العهد الزياني أنموذجا، مجلة منتدى الأستاذ ،العدد18، 2016م ، ص166.

[10] أبو يحي يغمراسن بن زيان ، بايعه أهل تلمسان سنة 633هـ،كان رجلا شجاعا ذا هيبة وحلم وتواضع ،دامت فترة حكمه 48سنة .أنظر: الحاج محمد بن رمضان شاوش ، باقة السّوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ،ديوان المطبوعات الجامعية ، تلمسان ، ط2 ، 2001م ،ج1 ، ص65.

[11] هو الشيخ أبو البيان واضح بن عاصم المكناسي دفين خنق رهيو كان شيخا فاضلا قاهرا لأحواله مجتهدا في العبادة دائم التوجه إلى الله ولد في بداية القرن السابع وكانت وفاته في أواخر هذا القرن وهذا ثابت كونه حضر وفاة السلطان يغمراسن أنظر: المازوني ، المصدر السابق ، ص 101.

[12] المازوني ، المصدر السابق ، ص134،135.

نفسه مرة أخرى بتأجيل أمور الرعية وجعلها تنتظر لتُقض حاجاتها ، فنلاحظ بروز فاعلية الولي الاجتماعية بعيدا عن الفعل الكرامي .

تحدّث المازوني في موضع آخر عن قصة الأمير الصنهاجي وهو يحي بن يوغان[13] الذي أراد أن يكون تلميذا عند الولي عبد السلام التونسي فاشترط عليه مقابل تعليمه الذهاب إلى الجبل والاحتطاب والدخول إلى القصر والحزمة على ظهره،فنفذ الأمير ما طُلب منه فكافأه الولي عبد السلام وذلك أنه أصبح مجاب الدعوة[14].

نلاحظ هنا تأديب الولي للأمير بطريقة غير مباشرة ومواجهته بهذا الشرط بكل شجاعة ، وهنا تبرز مكانة الولي وقوته داخل المجتمع فلو لم يكن يحظى بمكانة عالية ومشهور بولايته وكراماته لما واجه هذا الأمير بهذا الطلب الذي لو أمره به شخص عادي لاعتبره إنقاص له من قيمته، إذن تبرز هنا فاعلية الولي في الحدث ضمن إطار دور طبيعي وهو الطلب وطابع كرامي وهو منحه للأمير خاصية استجابة الدعوة.

ب/دور المكاشفة في توبة السلاطين

جاء في نص آخر مكاشفة الولي سيدي واضح للسلطان الزياني يغمراسن بجمعه بين أختين نصرانيتين حيث أدّبه وانبعث معه في الكلام قائلا: «ما خير لذّة ساعة مصيرها بصاحبها إلى عذاب الله»[15] فخر السلطان بين قدميه معلنا توبته وعدم رجوعه إلى هذه المعصية وترجاه بكتم هذه الرذيلة فقبل الشيخ شرطه وأمره أن يمسك إحداهما ويترك الأخرى كما أمر الشرع[16] .

إذن من هذا النص يتبين دور الكرامة وهي"المكاشفة" في قدرة الولي على المواجهة وتوبيخ المذنب وهو السلطان دون أي خوف ،ثمّ نلاحظ استعمال الوعظ والإرشاد كأسلوب ثاني ،ثمّ نلاحظ نجاعة الأساليب المستعملة وذلك بإعلان التوبة والرجوع عن المعصية ، إذن فمكاشفة الولي للسلطان هي كتهديد له في حال عدم التوبة ويمكن أن تستعمل كنقطة قوّة بالنسبة للولي ليكون وسيطا بين السلطان والرعية في قضاء حوائجهم .

ج/ حلول العقوبة بانتهاك حرمة الولي

---

[13] هو أبو زكرياء يحي بن يوغان الصنهاجي من تلامذة عبد السلام التونسي ، كان ابتداء أمره بهذه القصة ، وقد كان ملكا زاهدا مجاب الدعوة توفي بتلمسان سنة 537هـ.أنظر: ابن الزيات،التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تح:أحمد توفيق، ط2 ،1997م،منشورات كلية الآداب ، الرباط ، ص123-125.

[14] المازوني ، المصدر نفسه، ص 306.

[15] نفسه ، المصدر نفسه ، ص 137،138.

[16] نفسه ،ص138

جرى بين السلطان الزياني أبي حمو موسى[17] والولي أبي عبد لله محمد بن يحي كلام كثير غضب منه السلطان لدرجة أنّه ضرب الولي بعصا كان يتكئ عليها لكنّ سيدي أبو عبد الله ردها برفّاسه ثمّ عمد إليها وضرب بها السلطان وانصرف غاضبا وما إن خرج حتى أصيب أبو حمو يوجع شديد ،ثمّ طلب المرابط فجاءه فاستعطفه واسترضاه ومسح يده علي موضع الألم فزال فشكر الله على نعمته عليه[18].

نلاحظ أنّ الولي هنا مارس شكلا من أشكال الرد الرمزي وهو إنتاج الكرامة[19] والتي جاءت كرد فعل لإهانة السلطان له ، كما أنّ طلب العفو والرضا من الولي يبين أنّ التمسك بالولاء للأولياء والصالحين وطلب رضاهم أفضل اختيار، وبهذا فهم يشكلون نقطة ضعف للسلطة كما أنّ حضور الكرامة في لحظة التوتر بين السلطة والولي هي مؤشر دال على قوة الولي وعجز السلطة وعدم قدرتها على التصرف تجاه الفعل الكرامي إلا بالخضوع والانقياد للولي.

4/ أشكال تدخل الولي في مواجهة الحروب والنزاعات

أ/ دور الولي في إفشال إغارة أمير بني توجين[20] على مغراوة[21]

أورد المازوني نصا آخر يبرز فيه إفشال الولي أبي البيان واضح لحملة أمير بني توجين على مغراوة وملخص الحادثة أنّ محمد بن عبد القوي نزل بعدوة واد رهيو تجاه زاوية الشيخ سيدي واضح طالبا الثأر من مغراوة قتلة ابنه زيان فهلع النّاس منه وفروا إلى زاوية الشيخ مستجيرين به باكيين خائفين على أنفسهم وحريمهم و نهب أموالهم ، فخرج سيدي واضح وقت الفجر وتضرع إلى الله أن يدفع شره عنهم ، فأصيب محمد بن عبد القوي بوجع وانتفخ بطنه لدرجة أنّه كان يصبّ من فمه ودبره ، فنصحه بعض خاصته بترك الإغارة ونبهه إلى أنّ ما أصيب به هو بسبب غضب الولي الصالح عليه لما فعله مع جيرانه ،فأرسل محمد بن عبد القوي

---

(17) السلطان الزياني أبو حمو موسى بن عثمان محيي الدولة بالزيانية ومنقذها من الهلاك، تولى الحكم سنة 706هـ، وتوفي سنة 718هـ بمؤامرة حيكت له مع ابنه أبو تاشفين.أنظر : التنسي ، المصدر السابق، ص 132-139.

(18) المازوني ، المصدر السايق ، ص400.

(19) أمال لدرع ، المرجع السابق ،ص179.

(20) من أعظم شعوب بني يادين و أوفرهم عددا ينتسبون إلى قبيلة زناتة ،كانت مواطنهم حفافي واد الشلف قبلة جبل ونشريس من أرض السرسو ، التي كانت تسكنها بطون من لوّاتة ، ثمّ اتسعت رقعتهم وأصبحت كل أرض السرسو لهم وصارت موطنهم مابين موطن بني راشد وجبل دراك في جانب القبلة . أنظر: عبد الرحمان ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج7 ، ص 205-206 .

(21) أوسع بطون زناتة ، جدّهم مغراو بن يصلتن بن مصرا بن زاكيا بن وريسك بن الدّيديت بن شانا بن يحي وجمهور بني مغراوة سنية ، مواطنهم بالمغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل دبولة .

أنظر : أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، *جمهرة أنساب العرب* ، تح وتع : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، دت ، ج2 ، ص 498. أنظر أيضا : عبد الرحمان ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، مراجعة : سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت- لبنان ، دط، 1421هـ/2000م ،ج7 ، ص33

فارسين إلى زاوية سيدي واضح وطلبا منه أن يرقي لهما ماء، فرقاه وأخذاه إلى أميرهم فلمّا شربه زال وجعه ،فصعد إليه من الغد متذللا واستبشر النّاس وأمنوا به[22].

في هذا النص تبرز سلطة الولي بواسطة الكرامة وهي "استجابة الدعاء ،شفاء الأمير بعد رقي الماء" حيث ساهمت في رسم صورة دور الولي في إلغاء الإغارة وتوفير الأمن والحماية للرعية ،كما نلاحظ أنّ العقوبة تكون بصورة آنية وفورية لا يرفعها إلاّ رضا الولي مجددا ، وما يشدّ الانتباه في هذا النص هو الإشارة إلى التأثيرات الاجتماعية التي خلّفتها هذه الإغارة من(خوف وفرار بالخيام والمواشي إلى زاوية الشيخ ،البكاء من شدة الروع)وفي خضم هذه الأحداث المروعة برزت فاعلية الولي الاجتماعية بالصلاة والدعاء وبالتالي طمأنة الرعية لأنهم يعتقدون في هذا الولي وبالتالي فهم يعلمون أنّ شيئا ما سيحدث ويغير الأوضاع وهو ما حصل فعلا فكانت الكرامة بإصابة أمير بني توجين ثمّ الكرامة مرة أخرى بشفائه ثمّ الفرج وهدوء الرعية وشعورها بالأمن والحماية بعد توبة محمد بن عبد القوي وتراجعه وكل هذا بفضل الولي سيدي واضح، ومن هذا النص يتبين دور الزاوية في إيواء المظلومين وتوفير الأمن والحماية لهم.

ب/ دور الولي في استرجاع الأشياء المسلوبة

أورد المازوني نصا يتحدث فيه عن إغارة جيش ابن غانية[23] على زاوية الولي سيدي أبي يعقوب التي كانت كثيرة العمارة فسلبوا الأموال والأثاث وانتهبوا المواشي فقصده الشيخ بنفسه وكان جسيما تام الصورة فلمّا رآه ابن غانية قال في نفسه ما لهذا الحبر السمين فكوشف ببذلك ولمّا قرب منه أمره بالجلوس أمامه فقال له :«ليس ذلك محل الحبر السمين »فأخذه الروع وتغير لونه ، وقال له كيف يغير جيشك على زاويتي ؟ وطلب منه أن يتق الله في أموال المسلمين،فوعده فأعاد ابن غانية للشيخ كلّ ما تمّ أخذه[24].

إذن فدور الكرامة في هذا النص وهي" المكاشفة" جاء كسبيل لهداية صاحب الفساد والظلم وهو ابن غانية ، وهو ما حدث فعلا حيث تراجع عن فعلته وأمر بردّ ما تمّ نهبه ، ،كما يتبين دور الأولياء في الوقوف إلى جانب المجتمع في رفض سياسة السلطة والاحتجاج ضدها خلال الحروب والقدرة على مواجهتها بدون هيبة والدليل على ذلك هو توجه سيدي يعقوب إلى ابن غانية بنفسه.

---

[22] المازوني ، المصدر السابق، ص145،146.

[23] يطلق على رجلين من قبيلة مسوفة نسبة إلى أمّهما غانية التي كانت من القصر المرابطي وهما يحي ومحمّد وكانا من شجعان يوسف بن تاشفين فأمّا يحي فقد ولاّه مدينة قرطبة ،وأما محمد فولاّه على الجزائر الشرقية وميورقة و منورقة وقد رفضوا الدّخول في دعوة الموحّدين.أنظر : عبد الرحمان ابن خلدون ،تاريخ ابن خلدون ،ج6 ، ص 252، 253. أنظر أيضا : أبو محمد عبد الواحد بن علي المرّاكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،شرحه واعتنى به :صلاح الدّين الهواري، المكتبة العصرية ، بيروت،ط1، 1426هـ/2006م ، ص195، 196.

[24] المازوني ، المصدر السابق ، ص 196،197.

وفي موضع آخر يتحدث المازوني عن اقتحام أمير بني توجين عبد القوي بن العباس زاوية الشيخ أبي يعقوب بعدما علم أنّ ذخائر مغراوة وُضعت كلّها بزاويته ،واستلب كلّ ما فيها وانتهك الحريم والشيخ ينظر إلى كلّ ذلك ،ولما هم الأمير بالانصراف طلب من الشيخ الدعاء فرد سيدي يعقوب يا عبد القوي وكرّرها ومراده الدعاء عليه وليس له وهو ينظر إلى السماء والنساء الأطفال والشيوخ يبكون حوله فلم لبث الأمير أن أهلكه الله تحت مجشر أبي حرش، ولما رأى بنو توجين ما حلّ بأميرهم أصابهم الروع وردّوا كل ما أخذوه إلى الزاوية[25].

تبرز فاعلية الولي في هذا النص من خلال التفاف الشيوخ والنساء والأطفال حوله والبكاء عنده فيظهر تعاطفه معهم بالدعاء على أمير بني توجين واستعماله كوسيلة لتحقيق المراد ورفع الظلم وهو ما حصل فعلا باستجابة الدعاء ،فهنا تبرز سلطة الولي مجددا بواسطة الكرامة وهي الدّعاء ، فاعلية بارزة تزيد في نسبة التفاف العامة حول الأولياء وتذكي الاعتقاد فيهم بصورة واضحة ويتجلى ذلك في إرجاع بنو توجين ما أخذوه خوفا منهم أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بأميرهم، كما نلاحظ أنّ المواجهة تحسم دائما لصالح الولي وهو ما يرفع من صورته الكارزماتية .

ج/ دور الولي في إفشال حملة السلطان أبي حمو موسى على مكناسة[26]

مختصر هذه الحادثة أنّ السلطان أبي حمو موسى جهّز جيشا قاصدا مكناسة الذين ضربوا خدّامه ومزّقوا أثوابهم عليهم وجرحوهم فلمّا علمت مكناسة بذلك اتجهت إلى الولي الصالح سيدي عزّزو والتفّوا حوله صغارا وكبارا يبكون وأخبروه بحركة السلطان إليهم فأمرهم بالانصراف وأنه سيتوجّه إليه لينظر لهم في الأمر ولما حل الغد ووصل الجيش لخناق رهيو اتجه سيدي عزوز إلى السلطان وهو راكب فصعد إليه وخنقه وأبى أن يتركه حتى يقضي حاجته فوعده السلطان بقضائها وهي الرجوع بجيشه وترك سبيل مكناسة ،فخلى سبيله ونزل ، وقفل السلطان راجعا وعنما انزعج الجيش بالرجوع وكثر كلامهم قال لهم «اتقوا الله فينا وأبعدونا من دعوة سوء والله ما حسست روحي إلا قريب تخرج من هيبته... ».[27]

---

[25] نفسه ، المصدر نفسه ، ص 197،198.

[26] كانت قبيلة مرسومة الحدود وقائمة كدوار ، وهي تابعة للبلدية المختلطة عمي موسى بواد رهيو، وحسب أحد الباحثين في تاريخ المنطقة أن قبيلة مكناسة موجودة شرق عين طارق الواقعة شرق مدينة عمي موسى دائرة وادي رهيو –ولاية غيليزان–أنظر : المازوني ، المصدر السابق ، هامش4 ، ص 402.

[27] المازوني ، المصدر السابق ، ص402،403.

في النص إشارة واضحة على اعتقاد الناس في الأولياء وأنّهم ملاذهم الوحيد عند الأزمة فكما سبق وقلت أن الأزمة هي المكان الخصب للفعل الكرامي وفيها تبرز فاعلية الولي الاجتماعية ، فنلاحظ تعاطف الولي معهم بطمأنتهم والتهدئة من روعهم وذلك بالتوسط لهم مع السلطان، وهو ما حدث فعلا حيث وافق السلطان على التراجع بعدما أحس أنه مشرف على الهلاك من بخنق الولي له وهيبته منه ، إذن فموقف السلطة تجاه الأولياء نابع من نفوذهم و فعاليتهم داخل المجتمع التي مارسها هؤلاء انطلاقا من كرامتهم الاجتماعية ، و هنا يبرز دور الولي كشفيع أو وسيط من أجل الإصلاحات وتهدئة الأوضاع بين المتخاصمين ، كما يبرز اعتقاد السلاطين في الأولياء والخوف من دعائهم وغضبهم والوصول إلى ما لا يحمد عقباه.

خاتمة :

ممّا سبق خلص البحث إلى النتائج التالية:

- أنّ هذا النص المنقبي ساهم في رسم صورة الولي وصورة محيطه فهذا المصدر وإن كان مقترنا بالولاية والتصوف فهو يتقاطع مع الوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي لتلك الفترة .
- يعتبر كتاب صلحاء وادي شلف أنموذجا من نماذج كتب الأدب المنقبي التي لا يمكن الاستغناء عنها كونه غنيا بمعطيات مهمة جدا قد تكون غير مثارة ومغيبة في الكتب التقليدية كما يمكن أن تشكل هذه المادة قضايا بحث مستقلة.
- رغم التكامل بين الأزمة والحضور الكرامي للأولياء إلاّ أنّ هذا التجاوب ظلّ محدودا ولا يتميز بالشمولية بل يدخل في جزئيات فقط حيث لم يذكر أنّ وليا مثلا تجاوز حربا واسعة المجال بأكملها.
- أنّ مواجهة السلطة من طرف الأولياء كانت بالوعظ والتأديب والإرشاد تارة وباستعمال الكرامة تارة أخرى لكن مواجهة الحروب والنزاعات كانت تتم غالبا بواسطة الكرامة.
- تنوّعت الكرامات الممارسة من طرف الأولياء بين الدعاء والمكاشفة والمرض والشفاء.
- تمثل الدور الاجتماعي للأولياء في تأديب السلاطين وتذكيرهم بواجباتهم نحو الرعية ، المساهمة في توبتهم ،المساهمة في إبرام الصلح ،ردّ الجيوش الغازية، ردّ المظالم واسترجاع الأشياء المسلوبة.

وفي النهاية أنصح الباحثين أن يوسعوا دائرة المعرفة التاريخية في علم التاريخ وأن لا يقتصروا على المصادر التقليدية بل يجب الاتجاه إلى الأوعية المعرفية الأخرى على غرار كتب المناقب هذه النصوص تحوي في ثناياها كمًّا هائلا من المعلومات التي وإن بدت في الوهلة الأولى تافهة القيمة إلا أنها في حقيقتها تعطي دورا تكميليا للروايات التاريخية .

قائمة المصادر و المراجع:

1. ابن الزيات،التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق:أحمد توفيق، ،منشورات كلية الآداب ، الرباط ،الطبعة الثانية،1997م
2. أبو القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي ، مطبعة بيير فونتنا الشرقية في الجزائر ، 1324هـ/ 1906م.
3. أبو عمران موسى بن عيسى المازوني ، مناقب صلحاء وادي الشلف، تحقيق: عبد القادر بوباية ، مكتبة الرشاد ، الجزائر ،ط1 ، 2017م
4. أبو محمد عبد الواحد بن علي المرّاكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،شرحه واعتنى به :صلاح الدّين الهواري، المكتبة العصرية ، بيروت،الطبعة الأولى، 1426هـ/2006م
5. أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، دون تاريخ ، الجزء2 .
6. أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة ،دار الكتاب ، طرابلس ، الطبعة الثانية ، 2000م.
7. أمال لدرع، الخطاب المنقبي وصياغة الحدث التاريخي"غياب الأمن"غزو تلمسان وحصاراتها خلال العهد الزياني أنموذجا، مجلة منتدى الأستاذ ،العدد18، 2016م .
8. الحاج محمد بن رمضان شاوش ، باقة السّوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ،ديوان المطبوعات الجامعية ، تلمسان ،الطبعة الثانية ، 2001م ،الجزء1.
9. عبد الرحمان ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، مراجعة : سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت- لبنان ، دون طبعة، 1421هـ/2000م ،الجزء السادس والسابع..
10. عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، موفم للنشر ، الجزائر دط ، 2002م ، الجزء1 .
11. محمد بن عبد الله التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان ، تحقيق : محمود آغا بوعياد ، موفم للنشر ، الجزائر ، 2011م.